سهام إبليس

٣٣ قال رب العزة فى الحديث القدسى:

«النَّظْرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إبْلِيسَ، مَنْ تركَها مِنْ مَخَافَتِي أَبْدلْتُه إيمَاناً يَجِد حَلاَوَتَهُ فِى قَلْبِه» (١)

لقد رَأفَ الحقُّ سبحانه بالرجل والمرأة أنْ أمرهما بغضِّ البصر، لأن الإنسان لن يستطيعَ مُطْلقاً أنْ يفصلَ بين الإدراك والوُجْدان والنُّزوع ، فكُلٌّ من الإدراك والوُجْدان يصنعان تفاعلاً فى التركيب الكيمائى لكُلٍّ من الرجل والمرأة.

فإمَّا أنّ يعفَّ الإنسانُ نفسَه ويكبت أحاسيسه ، وإمَّا ألاَّ يعف فَيَلُغ(٢) فى أعراض الناس ؛ لذلك خاطب الحقُّ سبحانه رسولَه ليُوجّه الرجال ، فقال:

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ

---

(١) أورده المنذرى في الترغيب والترهيب (٣/ ٥٧) وعزاه لعبد الله بن مسعود. وكذا العجلونى في كشف الخفاء (٢/ ٤٥٥) ، وكذا الهيثمي في مجمع الزوائد(٨/ ٦٣) عزوه كلهم إلى الطبرانى وفيه عبد الرحمن بن إسحاق الواسطى وهو ضعيف. وقد أورده الحاكم فى مستدركه (٤/ ٣١٤) من حديث حذيفة غير مروى عن رب العزة ، قال الذهبى : « فيه واه وضعيف ».

(٢) الولغ : شرب السباع بألسنتها ، وولغ الكلب في الإناء : شرب فيه بأطراف لسانه . (لسان العرب - مادة : ولغ) والمقصود به الخوض في أعراض الناس.

خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (النور)

وكذلك النساء ، فقال :

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴿٣١﴾ ﴾ (النور)

فالآيتان تأمران الرجل والمرأة بغضِّ الأبصار وحِفْظ الفروج.

والإنسان له إدراكات متعددة ، وكُلُّ جهاز إدراك له مَنَاط ، فالأذن تسمع الأصوات ، والأنفُ تشمُّ الرائحة ، واللسان يتذوَّق المطعومات والمشروبات ، ويتكلم بما يُراد ، والعين ترى المرئيات.

وأفتَنُ شيء يصيب الإنسان من ناحية الجنس يأتي عن طريق العين، فالعين تُبصِر ما حولها ، فهناك مُبْصِر (بكسر الصاد) وهو العين ، وهناك مُبْصَر (بفتح الصاد) وهو مصدر الفتنة التي ستراها العين.

فلا بُدَّ أن يضع الحقُّ مناعة في كِلاَ الطرفين ، فأمرنا بغضِّ البصر ، وبعد ذلك ستأتي الآيات التي تأمر المبْصَر (بفتح الصاد) بعدم إبداء زينته.

فبالنسبة للعين أمرنا بغضِّ البصَر وأمر المؤمنات بالحِشْمة وعدم إبداء الزينة ، وبذلك يمنع المسألة من الناحيتين ، فحين تغضُّ بصرك عن محارم الله لا يَهُمك إنْ كانَ هناك زينةٌ أم لا.

- فإنْ غَضَّ الرجلُ بصره ولم يكُنْ للمرأة زينة ، فالمسألة سليمة تماماً.
- وإن غضَّ بصره وكانت المرأة مُبْدِيةً زينتها ، فالمسألة سليمة أيضاً ،

لأنه لن يرى منها شيئاً يفتنه طالما غَضَّ بصره.

- وإن نظر إليها وهى غير مُبْدية لزينتها فلن يحدثَ شىء.
- ولكن الخطورة فى الحالة الرابعة ، وهى أنْ ينظرَ الرجل إلى المرأة وهى مُبدية لزينتها ، فهنا مَكْمَن الخطر.

فالمؤمن يغضُّ بصره ، والمؤمنة لا تُبدى زينتها ، وتغضُّ بصرها أيضاً ، حتى لا تُفتنَ برجل وَسِيم قد يكون أحسنَ من زوجها.

كُلُّ هذه المسائل مَنْع للشىء البشع الذى قال فيه الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ (الإسراء)

والحق سبحانه وتعالى ساعةَ يتكلَّم عن أوامره ونواهيه ، فنجده مرة يقول: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴿٢٢٩﴾ ﴾ (البقرة)

ومرة أخرى يقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴿١٨٧﴾ ﴾ (البقرة)

وهناك فارق بين الاثنين ، فقوله تعالى (لاتعتدوها) يعنى : هذا حَدُّكَ فلا تتعدَّه ، فأنت وصلتَ إلى الحدِّ ولكن لا تتعدّه.

ولكن حين يقول سبحانه (فلا تقربوها) فأنت لم تصل إلى الحدِّ ولكنك بعيدٌ عنه ، والملاحظ أن الحق سبحانه بعد كل الأوامر يقول (لا تعتدوها) ، وعند النواهى يقول (لا تقربوها).

فالأمر المنهىّ عنه لا يتركك حتى تصلَ إليه ، ولكن يأمرك بالابتعاد عنه حتَّى لا يُغريك الشيطانُ بالوقوع فيه.

إذنْ : هناك فَرْق بين الفعل وبين أنْ تقربَ الفعل ، ومع أن المحرَّم هو الفعل ، فقد نهاك عن الاقتراب منه ؛ لأنه سبحانه يريد أنْ يرحمَ عواطفك فى هذه المسألة بالذات ، وهى مسألة الغريزة الجنسية ، لأنك إنْ حُمْتَ حول الحِمَى تُوشِك أنْ تُواقِعه[1] ، فحين تبتعد عنه يكون خيراً لك.

وقد قَسَّم العلماء مظاهر الشعور إلى ثلاث مراحل :

مرحلة الإدراك مرحلة الوُجْدان مرحلة النُّزُوع

وضربْنا مثلاً لذلك فَقُلْنَا : أنت تسير فتجد بستاناً فيه وردة جميلة ، ساعةَ ترى هذه الوردة الجميلة يُقال : إنك أدركت جمال هذه الوردة ، فهذا إدراك ، فلم يمنعْكَ أحدٌ أن تنظرَ إلى الوردة وترى جمالها.

فإذا ما أعجبتْكَ وراقتْكَ واستقرَ فى نفسك حُبُّ الوردة ، يُقال : هذا وجدان. فانتقلت من مرحلة الإدراك إلى مرحلة الوُجْدان.

فإذا مددْتَ يدكَ لتقطِفها فهذه مرحلة النُّزوع.

الشرع هنا لا يمنعك من أنْ ترى وردةً فى بُسْتان ، ولم يمنعك أن تُعجبَ بها ، ولكنه يمنعك أنْ تمُدَّ يدكَ لتقْطفها.

---

(١) عن النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الحلال بين وإن الحرام بَيّن ، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع في الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » أخرجه مسلم في صحيحه (١٥٩٩) كتاب المساقاة ، وكذا البخارى فى صحيحه (٥٢ ، ٢٠٥١).

فالتشريع يتكلم عن مرحلة النُّزوع إلاَّ فى مسألة واحدة ، هذه المسألة هى التى لا يمكن فيها فَصْل النزوع عن الوُجْدان ، ولا الوُجْدان عن الإدراك ، لأنها مراحلُ مُتداخِلة فى بعضها ، حيث لا تَقْوى النفس البشرية على الفَصْل بينها.

فمثلاً ، إذا رأى إنسانٌ فتاة جميلة فَعَشِقها وأُعجِب بها ، فهذا إدراك ووجدانٌ ، ثم أراد الاقتراب منها نقول له : هذه ليست لك.

فهذه المراحل لا يسهل فَصْلُها عن بعضها ، لأن الإدراك وَلَّد وجداناً ، والوُجْدان أحدث فى النفس البشرية عملية غريزية عنيفة لا نستطيع أنْ نفصلَ النُّزوع عنها ، فإمَّا أنْ تنزع وتذهب إليها ، وإمَّا أنْ تعفَّ.

فإنْ نزعتَ وذهبت إليها أصبحتْ المسألة فوضى ، وإنْ لم تفعل تتضايق وتتألم ، وتظلّ عالقة بذهنكَ ويُتعبك التفكير والتعلُّق بها.

فربُّنا من رحمته قال لك : يا عبدى أنا أعلم بك ، فافْصِل الإدراك والوُجْدان عن النُّزوع فى المرأة بصفة خاصة ، لأنك لا تستطيع إنْ أدركتَ جمالاً ألاَّ تجدَ فى نفسك عِشْقاً وحُباً ، وأنت مُحرَّم عليك النُّزوع.

فإنْ أقبلْت هتكْتَ أعراض الناس ، وعَمَّتْ الفوضى ، وإنْ عففْت أتعبتَ نفسك وظللْتَ فى هَمٍّ وغَمٍّ ونكدٍ وألم نفسىّ ، فمن الأفضل لك ألاَّ ترى شيئاً من ذلك ، وألاَّ تجد حتى لا تنزع.

ولذلك حَرَّم الله علينا أنْ ننظرَ إلى أعراض غيرنا ، حتى يُريح الإنسانُ نفسَه من أول الأمر.

فقال تعالى :

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ... ﴿٣٠﴾ ﴾ (النور)

فـهناك غَضُّ النظـر إلى مـحـارم الله ، لأنك لو نـظرتَ لأدركتَ ، ولو أدركتَ لَوجدْتَ ، ولو وجدْتَ لنزعتَ ، فإنْ أخذتَ حظَّك من النزوع أفسدت الحيـاة واعـتديْـتَ على الأعـراض ، وإنْ كـتـمْتَ فى نفـسك تعـبْتَ وتألمتَ وعانيتَ ، وعِشْتَ حياةً تعيسة.

فالحقُّ سبحـانه اختصر الطريق لنا ، وأمرنا بغضِّ البصـر من البداية حتى لا نقع فى هذه المشكلة ونمنع حدوثهـا ، وحتى نحمى أعراض الناس ونرحم نفوس الشباب من أنْ تكتمَ وتكبتَ وتمرض وتتألم.

بعض المتحـايلين على أوامر الله يدَّعُون أن النظرةَ لا تُحدِث شـيئاً ، وأن كل واحد فى حاله ، ونحن نقـول لهم : هذا كلام الله الذى خلقنا ويعلم دخائل نفوسنا وطبيعتنا ، وهو الذى أمرنا بذلك.

ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴿٣٢﴾ ﴾ (الإسراء)

لم يَقُل لا تزنوا... ولكن أمـرنا بعـدم الاقتـراب منه ، والاقتـراب يكون بالنظر وبالمخالطة والمـعاشرة والحديث بحجة أن هذا ابنُ خـالتها ، وهذا ابن عمتها ، وهذا ابن عمها ، وهذا تربَّى معها ، وهذا زميلها.

وهذا كله فـساد فـى فسـاد ، لأنه طالمـا يحل له أنْ يتزوَّجـهـا فلا عُـذْرَ

لاختلاطه بها ، وعليه أنْ يبتعدَ ما دام ليس مُحرّماً عليها ، وكفى المجتمعات مشاكل ومتاعب.

فامنعوا المسائل من أوَّل مراحلها.

لذلك أمر الحق سبحانه النساء بإخفاء الزينة ، فقال تعالى :

﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا(١) وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ(٢) عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ(٣) ... ﴿٣١﴾ ﴾ (النور)

الزينة هى الأمر الزائد عن الخِلْقة الفِطْرية ، ولذلك يقولون عن المرأة الجميلة بطَبْعها أنها ليست بحاجة إلى الزينة ، فكانوا يُسَمُّونها غانية(٤) ، أى : غَنِيَتْ بجمالها أنْ تتزيَّنَ.

والمرأة تُحِبّ دائماً أن تتزيَّنَ وتُبرز جمالها ومفاتنها ، خاصة إذا كانت غير مُتديِّنة ، وذلك حتى تجذب أنظار الرجال إليها ، حتى أنك أحياناً ترى سيدة مُسِنَّة ، ومع ذلك تضع الأصباغ والمساحيق على وجهها ، وهذا شيءٌ غير لائق بها.

---

(١) أى : لا يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه. قال عبد الله بن مسعود : الزينة زينتان ، فزينة لا يراها إلا الزوج : الخاتم والسوار ، وزينة يراها الأجانب ، وهى الظاهر من الثياب. (تفسير ابن كثير ٣/ ٢٨٣)

(٢)الخمر : جمع خمار. وخمار المرأة : ما تغطى به رأسها ، وقد أمر الله النساء بإسداله على صدورهن. والخمار : خمر الشيء ستره ، وهو كل ما ستر وغطَّى. (القاموس القويم ١/ ٢١٠).

(٣) الجيب : جيب القميص والدرع. وهو ما يفتح منه على الصدر. ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴿٣١﴾ ﴾ (النور) أى : يغطين أعلى صدورهن مع وجوههن. (القاموس القويم ١/ ١٣٨).

(٤) الغانية التي غنيت بحسنها وجمالها عن الحلّى. (لسان العرب - مادة : غنى).

فالحقُّ سبحانه أمرَ المسلمات بغضِّ أبصارهنّ ، وعدم إبْداء زينتهنَّ ، ومع ذلك رَحِم الله ضَعْف الأنوثة ، فقال:

﴿ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا .. ﴿٣١﴾ ﴾ (النور)

مثل عينيها التى ترى بهما فى الطريق ، وقد يكون فيهما كُحْل ، وكذلك يدها قد يكون فيها خاتم أو حُلىّ ، أو حِنّاء ، فهذا مُبَاحٌ لها ، لكن زينة الصدر أو زينة الأُذن لا بُدَّ أنْ تُداريها بالحجاب أو الخِمار ، وكذلك الأَسْورة والخُلْخال.

ولذلك قال تعالى :

﴿ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴿٣١﴾ ﴾ (النور)

ومن العجيب أنك تجد الكثير من الفتيات والسيدات فى زماننا هذا لا تكتفى الواحدة منهُنّ بوضْع المساحيق على وجهها ، بل تكشف شعرها وصَدْرها ، وبعد ذلك تُعلِّق فى عنقها قلادةً ذهبية فيها مصحف.

وهذا شىءٌ عجيبٌ ومفارقات غريبة تدلُّ على عدم الوَعْى أو الفهم.

ويَقُصُّ لنا الحق سبحانه فى قرآنه مثالاً عملياً من قصة يوسف عليه السلام وامرأة العزيز ، فيوسف بدأت متاعبه فى القَصْر عندما بلغ مرحلة الفُتُوة ، ففى طفولته نظرتْ إليه امرأة العزيز كطفل جميل ، فلم يكُنْ يملك ملامح الرجولة التى تهيج أنوثتها.

أما بعد البلوغ فنجد حالها قد تغيَّر ، فقد بدأتْ تُدرك مفاتنه ، وأخذ

خيالها يسرحُ فيما هو أكثر من الإدراك ، وهو التهاب الوُجْدان بالعاطفة المشبوبة[1]، ولو كانت محجوبة عنه لَمَا حدثتْ الغِوَاية بالإدراك والوُجْدان.

وهذا يعطينا علَّة غَضِّ البصر عن المثيرات الجنسية ، فكانت نظرتها إلى يوسف عليه السلام وهو فى فُتوته ، بعد أنْ بلغ أَشُدّه نظرة مختلفة ، يُوضِّحها الله تعالى فى قوله :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ[2] ... ﴿٢٣﴾ ﴾ (يوسف)

والمراودة مطالبةٌ برفْقٍ ولِينٍ بستْر ما تريده ممَّنْ تُريده ، فإنْ كانَ الأمر مُسهّلاً فالمراودة تنتهى إلى شىءٍ ما ، وإنْ تأبّى الطرَفُ الثانى بعد أنْ عرفَ المرادَ فلن تنتهى المراودة إلى الشىء الذى كنت تصْبو إليه.

ويُحدِّثنا الحق سبحانه عن أَثَر النظَر فى النسوة اللاتى أرسلت إليهن امرأة العزيز بعد أن شاعَ أمر حُبِّها وهُيَامها بفتاها :

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ[3] لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ.. ﴿٣٢﴾ ﴾ (يوسف)

---

(١) شب النار والحرب : أوقدها. شَبّة النار : اشتعالها. (لسان العرب – مادة : شبب) والعاطفة المشبوبة : المشتعلة المتقدة.

(٢) قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : معناه أنها تدعوه إلى نفسها. أي : هلم لك. قيل : هى قبطية وقيل : حورانية (تفسير ابن كثير ٢/ ٤٧٣)وانظر أيضاً (الإتقان في علوم القرآن ٢/ ١١٨) وقال في (٢/ ٢٥٤) : «هيت : اسم فعل بمعنى : أسرع وبادر ».

(٣) يقال : حاش لله ، تنزيهاً له. قال مجاهد وغير واحد : معاذ الله. (تفسير ابن كثير ٢/ ٤٧٧).

فَهُنَّ حين آذيْنَ امرأة العزيز بتداول خبر مُراودتها له عن نفسه ، تخيَّلْنَ له صورةً ما من الحُسْن ، لكنهن حين رأيْنَه فاقَتْ حقيقته المرئية كُلَّ صورة تخيَّلْنها عنه ، فحدثَ لهن انبهار.

وأوَّلُ مراحل الانبهار هى الذُّهول الذى يجعل الشىء الذى طرأ عليك يذهلك عَمَّا تكون بِصَدده ، فإنْ كان فى يَدِك شىء قد يقع منك ، وقد قطعتْ كُلٌّ منهُنَّ يدها بالسِّكين التى أعطتها لها امرأةُ العزيز لتقطيعِ الفاكهة ، أو الطعام المقدَّم لَهُنَّ.

❑❑❑